

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التأريخ لمنطقة توات
(الواحات الصحراوية لـ آ.جي. بي مارتن نموذجاً)

**French Writings and their Importance in Documenting the
History of the Tuat Region: The Saharan Oases by A.G. P. Martin
as a Model**

ط.د. حاج أحمد عبد القادر^{1*}، أ.د. مبارك جعفري²

¹ جامعة أحمد درايعة . أدرار . الجزائر . hadjahmedaek68@univ-adrar.edu.dz

² جامعة أحمد درايعة . أدرار . الجزائر ، mebarek76@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2024/12/22 تاريخ القبول: 2025 /03/15 تاريخ النشر: 2025 /03/30

ملخص:

كان للكتابات الأجنبية، سواء كانت تاريخية أو اجتماعية أو اثنوجرافية، دوراً كبيراً في التأريخ لمنطقة توات وفي فهم المكونات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه المنطقة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ويعود السبب في هذا الاهتمام للثراء الثقافي والتاريخي للمنطقة، ولدورها الكبير في تجارة القوافل العابرة للصحراء. ويعد كتاب الواحات الصحراوية (قورارة — توات — تيديكلت) لمؤلفه ألفريد جورج بول مارتن واحداً من هذه الكتابات، وتهدف من خلال هذه الدراسة إلى إبراز أهميته وأهمية الكتابات الأجنبية عامة في فهم المسارات الثقافية والتاريخية لتوات، مع التركيز بشكل خاص على الكم الهائل من المعلومات التي استطاع المؤلف جمعها من خلال المخطوطات والرواية الشفوية.

كلمات مفتاحية: توات؛ قورارة؛ تيديكلت؛ الرحالة والمستكشفين؛ الكتابات الفرنسية؛ الواحات الصحراوية؛ آ.جي. بي مارتان.

Abstract:

Foreign writings, whether historical, social, or ethnographic, have played a significant role in documenting the history of the Tuat region and understanding its social, economic, and political components during the 19th and early 20th centuries. This interest is attributed to the region's rich cultural and historical heritage and its pivotal role in trans-Saharan caravan trade. Among these writings is the book The Saharan Oases by A. G. P.

* المؤلف المرسل

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات (الواحات الصحراوية ل آ.جي. بي مارتن نموذجاً)

Martin. Through this study, we aim to highlight the importance of this work, as well as the value of foreign writings in general, in understanding the cultural and historical trajectories of Tuat.

Keywords: Tuat ; Gourara; Tidikelt; Travelers and Explorers; French Writings; Saharan Oases; A.G.B. Martin.

مقدمة: تعد الكتابات الأجنبية وخاصة منها الفرنسية مدخلا أساسيا ورافدا لا غنى عنه لدراسة ومعرفة الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية لسكان منطقة توات، وقد اهتم منذ بداية الاحتلال للمنطقة مجموعة من الكتاب والباحثين من ضباط واساتذة أكاديميين في عملية مسح واستكشاف علمي سواء لباطن الأرض أو ظاهرها، مما أدى إلى العديد من الكتابات العلمية المتنوعة انتجت الكثير من الدراسات الاجتماعية والثقافية وحتى الجيولوجية، ولقد اجتذبت دراسة مجتمعات منطقة توات وتاريخها اهتماما متزايدا في العقود الأخيرة، سواء بين الباحثين المحليين أو الدوليين. ويشكل عمل ألفريد جورج بول مارتن، الواحات الصحراوية (قورارة - توات - تيديكلت)، مساهمة كبيرة في هذا المجال، من خلال تقديم تحليل معمق للديناميكيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه المنطقة الصحراوية. وفي هذه الدراسة سوف نحاول تسليط الضوء على هذا العمل ووضعه في السياق الأوسع للبحث حول الصحراء. وتنطلق الدراسة من إشكالية مفادها ما أهمية الكتابات الفرنسية في التأريخ لمنطقة توات "الواحات الصحراوية" لمارتن نموذجاً؟

وتكمن أهمية الدراسة وأهدافها من أهمية أبحاث الفرنسيين حول توات عامة ومارتن خاصة، وعلى الخصوص كتابه "الواحات الصحراوية" والذي حاول فيه تقديم عرض جغرافي وبشري وبيئي واقتصادي واجتماعي لتوات والتعريف بسكانها وأماكن الاستقرار والمسالك الصحراوية مع التركيز على كل ما يتعلق بالحياة الاقتصادية، وسنحاول التطرق إلى الحثيات التي ساعدت مارتن للخروج لنا بكتابه ومدى أهمية المعلومات التي حملها، كما سنتعرف على مواطن القوة والضعف فيه، خاصة أنه تمكن من الحصول على وثائق مخطوطة من الصعب اليوم الحصول عليها.

أولا - الفرنسيون ومنطقه توات:

1- **منطقة توات:** تقع منطقة توات جنوب العرق الغربي الكبير وهي منطقة صحراوية تتميز بسلسلة من الواحات المنتشرة حول هضبة تادمايت. وخصائص المجتمع مرتبط تمامًا بالمغرب العربي وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى منذ عهود قديمة (Elise, pp. 39-55)، وتشكل منطقة توات أسفل السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي تمتد مساحتها من العرق الكبير شمالاً وهضبة تادمايت في الجنوب الغربي ويحد المنطقة على امتداد الغرب واد الساور الذي يتحول في جزئه السفلي إلى واد مسعود، (Dictionnaire, 1903, p. 209)

ومنطقه توات هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية، تقع فلكيا بين دائرتي عرض 26° و 30° شمال خط الاستواء وبين خطي طول الدرجة الرابعة والدرجة الأولى غرباً، ولقد سمح هذا الموقع الفلكي للمنطقة بأن تكون امتداداً لمنخفض تنزروفت الذي يتشكل في أقصى الجنوب الغربي لتوات (العربي، 1983، صفحة 64)

تضم توات ثلاثة مناطق فرعية متباعدة نسبياً، ففي الشمال تقع مجموعة قورارة وفي الأسفل منها في الجنوب الغربي مجموعة توات الوسطى، وفي الجنوب الشرقي تقع المجموعة الثالثة تيديكلت (VAISSIÈRE, 1902, pp. 24-26) وبدورها تشكل هذه المجموعات من العديد من القصور المتناثر حول سفوح هضبة تادمايت فشمال المنخفضات التي تلي هذه الهضبة تتناثر قصور قورارة، وعلى الامتداد الغربي على طول واد مسعود تتوزع قصور توات الوسطى، أما في منخفضات الجنوبية للهضبة تادمايت تتجمع قصور تيديكلت. ولكل مجموعة عاصمة فجهة قورارة عاصمتها تيميمون (FULGRAND, 1886, pp. 1-20). أما توات الوسطى فكانت عاصمتها تيمي، بينما كانت عاصمة تيديكلت عين صالح، ووصفت هذه القرى بالعواصم لأهميتها كمركز تجاري لمن حولها من القصور. (Rolland, 1891, p. 4)

ويتشكل كل قصر من بيوت مبنية من الطين وجذوع النخيل تحيط به حصون، وتمتد عادة أسفل منه حقول للزراعة وهي عبارة عن بساتين، يكون في أعلاها حوض تتجمع فيه مياه الفقارات. (Karl, 1953, p. 443) ولقد اطلقت على مختلف الأقاليم المشكلة توات أسماء أخرى على أساس المنتج الزراعي الغالب للإقليم، كنوات الحنة على توات الوسطى (Louis, 1905, p. 209).

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات (الوحدات الصحراوية لآ.جي. بي مارتن نموذجاً)

جاء ذكر منطقة توات في العديد من المصادر القديمة والحديثة فقد اشار هيرودوت إلى ذلك الجغرافيا دون ذكر اسم المنطقة، وكذلك ورد ذكرها عند كل من الجغرافي ابن حوقل، واليعقوبي وكذا الاصطخري (رموم، 2016، صفحة 82)، وذلك من خلال ذكر حدود ومواصفات جغرافية مطابقة للمنطقة وتركيبية تضاريسها حيث وصفوها بأنها منطقة خالية وقاحلة، كان يمر بها نهر كبير، كما ذكروا أن المنطقة الواقعة جنوب البحر توجد بها وحوش وخلفها لا توجد إلا منطقة قاحلة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, p. 28)

أما المصادر التي افصحت عن ذكر اسم المنطقة فيأتي في مقدمتها كتاب وصف افريقيا للحسن الوزان الذي ارتحل إلى الصحراء بداية القرن السادس عشر ميلادي، حيث ذكر كل من تساييت وتيكورارين على أنها منطقة من صحراء نوميديا يوجد بها العديد من حدائق النخيل وأن لهذه البلاد الكثير من الأراضي الصالحة للزراعة (الوزان، 1983، صفحة 133) ورغم أن ابن خلدون لم يزر توات إلا أنه ذكرها فقال في ذلك: "يسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المائتين، آخذة من المشرق إلى المغرب، وآخرها من جانب المشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في العمران" وعلى غرار تمطيط فقد استهوته مثيلاتها من قصور تيكورارين فأفرد لها مقطعاً جاء فيه: "قصور تيكورارين وهي كثيرة تقارب المائة، في بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق، واستبحرت في العمران وغصت بالسكان" (ابن خلدون، 2000، صفحة ج7، 77)

وحل أيضاً بالمنطقة الرحالة ابن مليح السراج أثناء رحلة الحج سنة 1632 م وعودته سنة 1633م فقدّم وصفاً لبعض من القرى توات التي نزل بها فذكر جوانب من المظاهر الطبيعية والاقتصادية والدينية والحضارية، ونظراً لمكوته في بعض القرى عدة أيام، ذكر أهلها بالكرم وحسن الضيافة، فأثنى على دُكر المراحل التي يقطعها ركب الحجيج في أرض توات وعدد المراحل التي تربط توات من الجهة الشرقية والشمالية (القيسي، 1968، صفحة 29) .

ثم نزل بعد ذلك أبو سالم العياشي سنة 1661م أثناء مصاحبته لركب الحجيج من سجلماسة ثم توات وقورارة وتيدكلت، وامتدت اقامته بتوات إلى 12 يوماً، وأوردَ بعض أخبار

المنطقة، واعتبر العياشي توات سوقاً رائدة في صرف الذهب والعملات، ذلك ما يؤكد قوله: "وبعنا بما خيلنا وما ضعف من إبلنا، واشترينا ما يحتاج إليه من التمر، وبما من التمر أنواع كثيرة، ووجدنا التمر فيها رخيصاً"، ووصف أهل توات من العوام بأنهم أهل تجارة يعيشون مما يكتسبونه من بيع التمر الذي يتوفر بالأنواع الكثيرة (العياشي، 2006م، صفحة 40).

وسياًتي زمن يتزاحم فيه الكثير من الرحالة والمستكشفين على المنطقة خاصة مع نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م، وذلك مع بداية التنافس الاستعماري على القارة الأفريقية حيث تدافعت الكثير من الدول في سباق لاحتلال القارة الإفريقية.

وبعد دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر جذبت الصحراء الكبرى فضول الكثير من القائمين على إدارة الاحتلال، سواء عسكريين أو مدنيين بأسرار اتساعها لان هذه المناطق كانت لا تزال مغلقة وبعيدة للغاية بالكاد تمكن عدد قليل من الرحالة المسلمين كما رأينا واثنين أو ثلاثة من المستكشفين الأوروبيين من الكشف على جزء بسيط مما حجب عنهم (Meynier, 1930, p. 6)

فالكثير من الأمور العلمية التي جاءت بالمقالات العلمية الجغرافية كانت تحتاج إلى الكثير من التحقيق والتدقيق، وهذا ما أنيط به من جاء بعد ذلك من رحالة ومستكشفين فبعد القضاء على معظم المقاومات الشعبية في الشمال الجزائري وصل الاحتلال الفرنسي الى حدود الصحراء الكبرى، وكانت هنالك مصائر ومقدرات جديدة على وشك الظهور فلم يعد الاحتلال الفرنسي قادرا على إيقاف نزعة الضباط والاداريين والمبشرين وكذا المستكشفين إلى التوغل في مجاهل الصحراء. (Meynier, 1930, p. 8)

2. الوجود الفرنسي في منطقته توات:

إن الاهتمام الأوروبي بمنطقة توات كما جاء ذكره لم يكن وليد القرن 20م إنما كان ذلك مع الرحلات الأوروبية للصحراء الكبرى، ورغم شاسعة أراضي الصحراء الكبرى وصعوبة مسالكها بالإضافة إلى قساوة مناخها فقد انطلقت العديد من الرحلات الاستكشافية، ظاهرها بعثات علمية بينما لم تكن سوى مقدمة لاحتلال المنطقة وكان ذلك بتشجيع من الجمعيات الجغرافية والعلمية التي مولت وأشرفت على العديد من هذه الرحلات، رغم أن هناك اشارة تبين أن الوجود

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات (الوحدات الصحراوية لآ.جي. بي مارتن نموذجاً)

الأوروبي أقدم من ذلك، حيث وصلها الجينوي انطونيو مالفونت (Antonio Malfante) كأول المارين بمنطقة توات سنة 1447م وبقي بها مدة (Charles, 1919, p. 39) وتوالت رحلات العديد من المستكشفين المغامرين البعض منهم حالفه الحظ من الاقتراب من منطقة توات مثل الرائد لينغ (Laing) (Vuillot, 1895, p. 3) ، وهناك من نجحت رحلته مثل المستكشف رونيه كايي (René Caille) حيث مر بالمنطقة صيف 1828م، قادما من تينبكتو إلى مراكش (Jomard, 1838, p. 330) واستقر به المقام بقصر تيمي عاصمة توات الوسطى يومها، ودون ملاحظات وانجز الكثير من الرسومات والمخططات التي قدمها للمصالح الفرنسية المختصة في جمع المعلومات الجغرافية والأثنوبولوجية الهامة عن أهل توات، والتي ساعدت بعد ذلك في عملية احتلال الجنوب الغربي للجزائر ومهدت للتوسع الفرنسي من الصحراء الكبرى نحو بلاد السودان.

وتتجلى أهميه رحلة كايي (Caille) أنه أول من جاء على ذكر منطقة توات فلم ترد أي اشارة للمنطقة قبل ذلك على لسان أي رحالة فرنسي، فلذلك اعتبرت الجمعية الجغرافية البارسية اكتشاف كايي في هذه الرحلة انجازا كبيرا استحق ان ينال جائزتها المقدّر ب 10,000 فرنك فرنسي، وعلى ما يبدو فقد ساهمت الجمعيات العلمية بشكل واضح بالدفع بالكثير من المستكشفين إلى المغامرة والتوغل في فيافي الصحراء الكبرى، فقد أسست وزارة الحربية الفرنسية يوم 14 اوت 1837 لجنة اسمتها لجنة اكتشاف الجزائر العلمي (سعد الله، 1998، صفحة ج6، 80) التي تكونت من جمع من الباحثين في عدة تخصصات علمية: (اثار، جغرافية، اثنوجرافية، تاريخ...) وكان أغلبهم من العسكريين، ونتيجة لذلك فقد ارتحل زمرة من الباحثين إلى الجزائر للبحث والدراسة على أن يتم نشر بحوثهم على نفقة الدولة الفرنسية، ولتسهيل ذلك وقع الاتصال بين أعضاء اللجنة والسلطات المحلية لضمان أمنهم، لاسيما أن المقاومة حينها ما زالت متواجدة في بعض المناطق الجزائرية (عمراوي، 2005 ، صفحة 49)

وحاول الكثير من العسكريين من خلال مواقع عملهم كمترجمين ومسؤولين عن المكاتب العربية كالعقيد أوجين دوماس (Eugène Daumas)، من خلال اطلاعه على كم هائل من

المعلومات التي كانت تصله في تقارير عن الأهالي، أو من خلال حواراته معهم، تأليف العديد من الكتب مستعينا بها، منها: صحراء الجزائر (Sahara Algerian) (Eugène, Le Sahara algérien : études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie., 1845, p. 275) وكذا كتابه الصحراء الكبرى (Le grand desert) حيث استطاع أن يقدم معلومات هامة عن جغرافية المنطقة وتركيبها السكانية وحالتها الاقتصادية (Eugène, itinéraire d'un caravane du sahara, 1848, p. 36)

واندفع مع منتصف القرن 19م بعض العسكريين لاستكشاف توات، ففي سنة 1857 ارتحل الضابط لوي دو كولومب (Louis De Colomb) لاستكشاف الصحراء وبدأ رحلته للجنوب الغربي في مطلع شهر جانفي حيث حل بكل من قرارة، توات وتيدكلت (نوشي، 1984، صفحة 385) بعد أن أخذ الإذن من قائده الجنرال دوريو (Durrieu)، واتصال أيضا بزعيم أولاد سيدي الشيخ الخليفة حمزة ليسهل له المهمة وكذا ببعض أفراد من قبيلة الشعابنة ليستدل بهم على الطريق إلى الجنوب، وكان الهدف لهذه المهمة التعرف على الواحات والطرق التجارية المؤدية لها ولقد نشر ذلك وذكر أهم القصور المشكلة للمنطقة توات وأهم عاداتها ونشاطاتها الاقتصادية (Colombe, 1858, p. 10) وجاء على أثره كل من الضابطين كولونيو (Colonieu) وبوران (Borin) سنة 1859م و1860م لشمال منطقة قرارة ودخلا كل من قرارة وأوقروت (Colonieu, 1892, pp. 41-97)، ولكن سرعان ما عاد أدراجهما خوفا على أنفسهما بعد أن أدرك السكان حقيقتهم، فقد أشيع في الصحراء أن فرنسا وجهت حملة عسكرية لاحتلال منطقة توات. فلذلك أغلقت أبواب القصور الجنوبية في وجه كولونيو ورفيقه (العربي، 1983، الصفحات 89-92).

وجاء بعدهما جير هارد رولفس (Gerhard Rohlfs) رغم أنه لم يكن فرنسي إلا أنه عمل في الليف الأجنبي للقوات الفرنسية ففي سنة 1864م، انطلق في رحلته الثالثة من طنجة عبر تافيلالت ومنها وصل إلى وادي الساورة وبني عباس ثم واحات توات متخفيا في ملابس السكان الأصليين، مدعياً أنه طبيب تركي، ودخل توات في أوت 1864م رفقة إحدى القوافل (Brun, 1866, p. 97) بعده جاءت رحلة بول صولبي (Paul Solleillet) الذي وصل إلى مشارف عين

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات (الواحاح الصحراوية لآ.جي. بي مارتن نموذجاً)

صالح سنة 1874م، كان ذلك بتكليف من الغرفة التجارة بالجزائر لاكتشاف الطريق من الجزائر إلى عين صالح، ورغم أن صولبي لم يسمح له بالدخول إلى عين صالح، إلا أنه قد سجل في كتابه الكثير من الملاحظات الهامة عن هذه المدينة وما جاورها من حيث مختلف الجوانب الجغرافية والجيولوجية والتجارية خاصة حول هضبة تادمايت (Soleillet, 1875, p. 85)،

ثم جاء على أدراجه مرسال بالات (Marcel Palat) انطلق في رحلته من مدينة الجزائر إلى قورارة وتوات التي دخلها سنة 1886م، ومنها توجه بعدها إلى تيدكلت، وفي الطريق تعرض للاغتيال بين عين صالح وعين بلبال في 21 فيفري 1886م رغم ذلك وصلت مذكراته إلى فرنسا ونشرت تحت عنوان: "يوميات السفر والمراسلات" (Bernard, 1994, p. 9)، وأعقبه الضابط كاميل دولوس سنة 1889 الذي كانت نهايته مثل سابقه (Augustin, 1906, pp. 101-102) والظاهر من هذه البعثات أن الهدف منها علمي ولكن حقيقتها، كانت للاطلاع على الأوضاع السياسية والمكونات الاقتصادية والبشرية للمنطقة، ومما يثبت ذلك أن معظم الرحلات الاستكشافية أسندت لضباط عسكريين (رموم، 2016، صفحة 81).

ولقد جمع بعض المستكشفين العسكريين بين حب المغامرة والبحث العلمي، وبالرغم من ارتباطاتهم المهنية فقد سعوا إلى البحث والتنقيب العلمي، وهذا ما حصل مع الفريد جورج بول مارتن، الذي بالرغم من عمله كمترجم لدى السلطات العسكرية إلا أن ذلك لم يمنعه من الترحال والتنقيب على خزائن المخطوطات في ربوع توات. وانتجت هذه المجهودات العديد من المؤلفات من أبرزها الواحاح الصحراوية الذي كان أول كتب مارتن فمن هو الفريد جورج بول مارت.

ثانيا - التعريف بالفريد جورج بول مارتن (Alfred Georges Paul Martin):

لقد بدأ ألفريد جورج بول مارتن الاهتمام بمنطقة توات من خلال عمله كمترجم عسكري بالجيش الفرنسي، الذي قام أثناء تواجده بتوات، بجمع مجموعة من المخطوطات والوثائق من العائلات المحلية من أجل تقديم تاريخ للمنطقة. من عصور ما قبل التاريخ إلى دخول الاحتلال الفرنسي. وهو مؤلف لعملين، نُشرا على التوالي في عامي 1908م و1923م، لهما أهمية استثنائية للغاية، خاصة لأنه وضع فيها ترجمة لسلسلة من النصوص التي جمعها في ذلك الوقت والتي اختفى

الكثير منها الآن. وعلى مدى السنوات الماضية، كانت هذه النصوص موضع اهتمام متجدد ومصدرا للعديد من الدراسات والأبحاث العلمية (Vogue, 2018, pp. 55-65).

فمارتن كما ذكرنا عسكري فرنسي ولد يوم 14 سبتمبر سنة 1863م في روبيي مايون (Rebey Mayenne) شمال شرق فرنسا، التحق بالقوات الفرنسية وانضم إليها سنة 1881م، (Curinier, 1931, p. 209) بداية اكتشافه للجزائر كان سنة 1885م في الجنوب الوهراني حيث اندمج بالأهالي وتعلم اللغة العربية وأحسن اتقانها مما جعله ينضم للضباط المترجمين سنة 1891م، تحول إلى منطقة المنبوعة التي كانت حينها قاعدة متقدما للقوات الفرنسية في الجنوب وكانت بدايات بروزه كباحث لما كلف بالقاء بحث في ندوة بسعيدة سنة 1893م بعنوان "التحرك الفرنسي في الصحراء" (Martin, L'action française dans le Sahara, 1893, pp. 330-351) شرح فيه وجهات النظر للحاكم العام لمصلحة التقدم نحو الجنوب، ويظهر لنا من خلال قراءتنا للبحث اطلاع مارتن على الكثير من الحشيات التاريخية والجغرافية لمنطقة توات قبل أن يحل بها سنة 1904م) كان قبلها شارك سنة 1892م في الحملة الاستكشافية للعقيد قودون (Godron) في الصحراء حيث كان له بحث عن الصوفية، فتنقل بحكم عمله بين كل من بسكرة وتقرت وقسنطينة.

ويجب أن نذكر أنه كان للمترجمين العسكريين دورًا حاسمًا في غزو الجزائر وإدارتها. فقد لعبوا من خلال وظيفتهم كوسطاء، ومن خلال المهارات اللغوية والأدبية التي تطلبها نشاطهم، ومن خلال إلمامهم بعادات السكان المختلفة من التواصل مع أهالي المناطق المحتلة (Messaoud, 2010, p. 8).

وبطلب منه انتقل إلى أقصى الجنوب الغربي سنة 1904م، الذي كان بقياده العقيد لايرين (Laperrine) الذي انتدبه خارج نطاق واجباته العادية كضابط مترجم إلى مهمة البحث والتحقيق في تاريخ وجغرافية الواحات الصحراوية، التي جعلها بعد ذلك موضوع عمله الأول عن المنطقة. ثم انتقل إلى المغرب الأقصى إلى غاية سنة 1912م عندها عاد إلى فرنسا حيث استقال من الجيش وتولى وظيفة استاذ اللغة العربية وعلم اجتماع بجامعة بوردو توفي سنة 1938م بمدينة بو (Pau) ونظير اعماله بالجيش الفرنسي تحصل سنة 1917 على ميدالية جوق الشرف.

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات (الواحاح الصحراوية ل آ.جي. بي مارتن نموذجاً)

ترك مارتن علامة مميزة كضابط مترجم مقيم بتوات وقبله بالجنوب الوهراني مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن 20، وانصبت اهتماماته بشكل خاص على منطقة توات حيث شارك في بحث مكثف خلال إقامته بالمنطقة وبذل مجهودات كبيرة لجمع مخطوطات ووثائق من عائلات محلية، وبمساعده بعض وجهاء المنطقة ألف من هذه المخطوطات كتاب تاريخي يمتد من عصور ما قبل التاريخ إلى بداية الاستعمار الفرنسي. لقد كانت مهمته طويلة وصعبة استمرت لعامين من سنة 1904 م إلى سنة 1906 م.

ترك مارتن العديد من المؤلفات والكتب والاعمال النصية التي اغنى بها رفوف المكتبات نذكر منها: (Martin, Quatre siècles d'histoire marocaine, 1923)

- على حدود المغرب الواحاح الصحراوية قرارة توات تيدكلت الذي صدر سنة 1908.
- الجغرافية الحديثة لشمال افريقيا جغرافية وسياسة واقتصاد صدر سنة 1912.
- ملخص علم الاجتماع لشمال افريقيا صدر سنة 1913.
- طريقة الاستنباط للغة العربية لشمال افريقيا (العامية والفصحى) صدر سنة 1919.
- أربعة قرون من تاريخ المغرب والصحراء من 1504 م إلى 1902 م صدر سنة 1923 م
- المغرب وأوروبا صدر سنة 1928 م.

تتميز نصوص وكتابات مارتن بقيمة هائلة لما تحتويه من تراجم للعديد من المخطوطات المحلية التي فقد الكثير منها للأسف، ومهدت مساهماته طريق لفهم متعمق للمشهد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لمنطقة توات، من خلال توثيق تراثها التاريخي، كما أنه عني بترجمة المخطوطات المختلفة والتي كتبها علماء محليون ساهمت من دون شرك في كشف رؤى عميقة حول أصول المجتمع التواتي وتطوره، مع تسليط الضوء على الروابط الاجتماعية عبر مناطق المغرب العربي وجنوب الصحراء الكبرى. فقد كان لمارتن السبق في الاطلاع على بقايا مخطوطات متميزة فذكر أنه ترجم عدة مقاطع من السجلات التي يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر. فعلى سبيل المثال كان أحدهما كتاب مؤسس زاوية أحمد بن. يوسف التنبلاي (ت 1078هـ/1667م) ووفقاً لمارتن، أن المؤلف دون فيه "تاريخ أصول التواتيين والذي لم

يجد شاهدًا له على الرغم من أنه نسخ في ثماني نسخ خلال حياة مؤلفه. ولم يعثر إلا على بعض الصفحات منه في مؤلفات أخرى (Martin, Quatre siècles d'histoire marocaine, 1923, p. 28).

أن أهمية عمل مارتن يتجاوز العمل الأرشييفي للسجلات والمخطوطات التواتية فقد أثار اهتماما متجددا بتراث توات المكتوب في العقود الأخيرة، وأرسى تقاليد أصبحت أساسا متينا للبحث المستقبلي حول المنطقة، مما ألهم الباحثين المحليين والدوليين لاستكشاف حركية المجتمع التواتي. (Voguet, 2018, p. 2).

ثالثا- التعريف بكتاب الواحات الصحراوية وأهميته:

حاول مارتن في الواحات الصحراوية كتابة نصوص تاريخية حول تاريخ منطقة توات انطلاقا مما عثر عليه من مخطوطات ووثائق في خزائن المنطقة، وأضاف إلى ذلك معطيات إحصائية جمعها المحتل الفرنسي، فأرسى بها إنجازا وأسسًا متينةً للتحقيقات والدراسات التي أتت بعد ذلك. وجاء كتابه في باين الباب الأول اشتمل على 14 فصلا والباب الثاني جزأه إلى ثمانية فصول.

الباب الأول جعل له مدخل للتعريف بالصحراء وتضاريسها ثم انتقل للحديث عن صحراء جنوب الجزائر مبينا حدودها الجغرافية، ثم انتقل إلى منطقة كل من توات قرارة تيديكلت مع إعطاء نبذة عامة عن منطقة الواحات مظهرًا أنها تشكل وحدة متماسكة على جانب سفوح هضبة تدمایت الشمالية والغربية والجنوبية على التوالي. ثم انتقل الى دراسة كل إقليم على حده، وبعد ذلك ذكر النقود والعملات والأوزان والمقاييس المستعملة في المنطقة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 1-24).

ثم بدأ الباب الأول الذي جعله كما ذكرنا في 14 فصلا، الفصل الأول أشار إلى العهود الزمنية القديمة إلى القرن الأول بعد الميلاد، حاول في هذا الفصل أن يؤرخ إلى ما كانت عليه أرض الصحراء في العصور الجيولوجية الأولى كفترة العصر الحجري مع ذكر المجاري المائية التي أحاطت بالمنطقة، وذكر أيضا تواجد أقوام الجيتول بالمنطقة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 25-36).

الفصل الثاني خصصه للإحاطة بتواجد اليهود بالمنطقة والأماكن التي أتت منها هجراتهم وذكر أيضا العمارة اليهودية في تلك الفترة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 37-45).

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات (الواحات الصحراوية لآ.جي. بي مارتن نموذجاً)

pp. 37-47)، أما الفصل الثالث فتحدث في هذا الفصل عن الزناتة واندفاعهم نحو الصحراء ودخول الإسلام إلى توات، إلى أن يأتي على ذكر الواحات في نهاية القرن العاشر (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 49-59).

الفصل الرابع تكلم فيه عن بداية الهجرات العربية نحو الواحات وأشار إلى الفقارة ودخول البرامكة إلى المنطقة وتتابع الهجرات أخرى إلى أرض توات إلى دخول الهلاليون إلى المغرب العربي (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 60-74) وفي الفصل الخامس ذكر وصول الهلاليين إلى الواحات وتمدد القبائل العربية في ربوع وادي الحنة بإقليم توات الوسطى وتتابع هجرات أخرى نحو توات (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 75-93)، أما الفصل السادس فأخبر عن دخول ما تبقى في بغداد من البرامكة إلى منطقة توات ونزولهم بقصر بوعلي وجوء أمير الزيانيين أبو حمو الثاني إلى تيجورارين وكذا وصول الشيخ المغيلي إلى المنطقة وأجلاء اليهود عنها (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 95-131).

أما كل من الفصول الممتدة من السابع إلى الفصل الثالث عشر فلم تنشر وذلك بحظر من السلطات العسكرية بالإضافة إلى سلطة الحاكم العام وقد نوه الكاتب إلى ذلك في تنبيهه في أول الكتاب وهي نفسها الفصول التي نشرت في كتاب أربعة قرون من تاريخ المغرب سنة 1923م بعد رفع الحظر عليها (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908).

أما الفصل الرابع عشر من الجزء الأول فذكر فيه بداية الاحتلال للمنطقة من دخول بعثة فلامون (Flamand) إلى اغسطن شمال عين صالح، المواجهات العسكرية التي شهدتها منطقة تيديكلت ومقاومة أهلها للقوات الفرنسية في معركتي الدغامشة وانغر، ودخول القوات الفرنسية من شمال المنطقة واحتلال قورارة، والمعارك التي خاضها الجنرال سيرفيار (Servière) وبداية وضع التنظيمات الإدارية للمنطقة -163 (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908, pp. 186).

أما الباب الثاني فجعله في ثماني فصول جاء في الفصل الأول نبذة تاريخية عن ما ذكره في الباب الأول: عن المجموعات السكانية التي هاجرت واستوطنت بإقليم توات إلى بداية الاحتلال الفرنسي للمنطقة وحلول الإدارة العسكرية، وتنقسم المنطقة إلى ثلاث ملاحق، هي: ملحقة قورارة

وملحقة توات وملحقة تيديكلت، وإنشاء لكل ملحقة كتيبة عسكرية، والكل تحت القيادة العسكرية لإقليم الواحات الصحراوية، مع الإقرار والاعتراف بالإدارة العرفية القائمة حينها في القصور، وكذلك كان الأمر بالنسبة للقضاة فقط ترك لهم حرية الممارسة، ثم تحدث عن الطرق الصوفية المتواجدة بالمنطقة وكذلك عن الضرائب التي فرضتها سلطات الاحتلال على الأهالي، وكذا عن ميزانية البلدية (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908).

أما الفصل الثاني فأشار إلى التركيبة السكانية وذكر أهم طبقات الاجتماعية وتوزيع الثروة بين الأعراق والطبقات (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908). وجاء في الفصل الثالث إشارة للثروة المائية فتحدث عن الفقارة وأجرى لذلك عملية الجرد لجميع الفقارات عبر كامل تراب المنطقة، أما الفصل الرابع فذكر فيه عملية استخراج بعض المعادن وكذا الإنتاج الزراعي وخاصة زراعة النخيل وأهم أنواع التمور، وفي الفصل الخامس أتى على ذكر الصناعة التقليدية والتجارة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908).

الفصل السادس أخبرنا فيه عن ظروف المناخية، فتحدث عن الرياح الأمطار ودرجة الحرارة وتحدث عن الأطعمة وملابس والسكن وفي الفصل السابع تحدث فيه عن الإنسان وتحديه للظروف المناخية القاسية والتضاريس الصعبة وتكيفه مع هذه الظروف التي تهدد بقائه وتحدث أيضاً عن الحياة النباتية والحيوانية في المنطقة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908).

وفي الفصل الثامن الأخير فبين فيه التطلعات والإمكانيات المستقبلية كتوفير الأمن والتخفيض من الضرائب الغير مناسبة وزيادة المخصصات المالية لصيانة الفقارة وإجراء تحسينات على الزراعة وإنجاز طرق ومواصلات لربط المنطقة بالشمال وكذا مع الجنوب حيث المستعمرات الفرنسية بالجنوب الغربي لإفريقيا (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908) وكما يتبين لنا من الباب الثاني أنه جاء على شكل عملية جرد لمكونات ومقومات المنطقة وتقييم للوضع.

وفي مجمل القول نذكر أن لكتاب الواحات الصحراوية أهمية كبيرة حيث تعرض فيه مارتن لتاريخ منطقة توات من عصور ما قبل التاريخ إلى غاية الاحتلال الفرنسي، مبرزاً أهم السمات الاجتماعية والاقتصادية لها، مدعماً ذلك بالعديد من الإحصائيات والنسب التي أخذها من السجلات الرسمية الفرنسية والمحلية كما أتى على ذكر أصول أهل توات وتاريخ استقرارهم وعدد السكان في كل إقليم، بالإضافة إلى الإحصاءات الاقتصادية المتعلقة بالمنتجات الزراعية والصناعية

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات

(الواحاح الصحراوية ل آ.جي. بي مارتن نموذجاً)

والحرف التقليدية وأهم الأسواق التجارية، كما قدر ثروة السكان من حيث كميات المياه وعدد النخيل.

يعد كتاب الواحاح الصحراوية من بواكير انتاجات مارتن، صدر سنة 1908م وقد كتب في بداية هذا الكتاب أن عند وصوله سنة 1904 للواحاح كان يظن أنه ملما ويعرف الكثير عن المنطقة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908) ولكن بعد مرور الوقت وانتقاله من قصر إلى قصر وبجته في البيوتات والصناديق القديمة اكتشف وثائق ومخطوطات هائلة زاخرة بمعلومات جعلته يعيد استكشاف الكثير من الحقائق، وتتضح له العديد من الأمور اعانته على وضع كتاب لأحياء ماضي المنطقة. ويعد عمل "الواحة الصحراوية" دراسة مهمة للواحاح الصحراوية، مع التركيز بشكل خاص على مناطق قوارة، توات، وتيديكلت، وهو يغوص في الروايات التاريخية والثقافية لهذه المناطق، بالاعتماد على مجموعة غنية ومتنوعة من المصادر الأولية. وتضمنت أبحاث مارتن الدؤوبة ترجمات وتفسيرات للمخطوطات المحلية التي دونت التقاليد الشفهية غير المسجلة سابقاً. وهو يسلط الضوء على أهمية الوثائق التاريخية المختلفة، بما في ذلك مؤلفات الكتاب البارزين، مثل ابن خلدون وابن بطوطة، مما يضعها ضمن الإطار السردى الواسع لتاريخ المغرب العربي.

هذا دون أن ننسى أنه سلط الضوء على المخطوطات المحلية الأساسية التي كتبها أشخاص مثل: أحمد بن يوسف التنبلاي، وابن بابا حيدة التمنيطي، والتي أرخت للمنطقة وتناولت الأصول الاجتماعية والثقافية التي تشكل حياة سكان توات. ويلاحظ أن هذه القصص غالباً ما تقدم فسيفساء من وجهات النظر المتعلقة بالعادات المحلية، مع دمج التأثيرات من مصادر خارجية. ومن خلال تجميعه الدقيق لهذه الروايات، يسعى جاهداً لإعادة بناء فهم أكثر ثراءً للمجتمع التواتي. بالإضافة إلى ذلك، يركز عمل مارتن الضوء على العلاقة بين التاريخ المكتوب والتقاليد الشفهية في تشكيل الهويات المحلية. وهو يوضح كيف تم تناقل هذه التقاليد من جيل إلى جيل حتى تم التعبير عنها أخيراً في شكل مخطوطة. ويعد هذا الاندماج ضرورياً لفهم تاريخ منطقة توات.

رابعا: الدراسة النقدية للكتاب

بادئ ذي بدء وقبل أن نلج إلى الدراسة النقدية لكتاب الواحات الصحراوية يجب علينا أن ننوه إلى أن مارتن قابلته ظروف صعبة حتى يتمكن من طبع هذا الكتاب ولقد ذكرنا أن هذا الكتاب تعرض للحظر، وتعود أسباب هذا الحظر إلى مشاكله مع قائده الرائد لاكروا (N.Lacroix) مدير شؤون الأهالي لدى الحاكم العام بالجزائر، والذي عند عودته مارتن إلى الجزائر العاصمة من الصحراء طلب منه مشاركته في إصدار الكتاب لكن مارتن رفض مما جعل لاكروا يستصدر قرارا من الحاكم العام يطلب منه أخذ كل ما جمعه من وثائق في الصحراء واعطائها لمكتبة الحكومة العامة بالجزائر على أن يعطى له الحق في استعمالها فيما بعد فتعهد أمام قاداته بعدم نشر أي شيء على أن تبقى الوثائق بحوزته ولكن هذا الاقتراح الذي صدر منه، وقبل بالرفض من طرف الحاكم العام جونار (Jonnard) مما اضطره على حمل مسودة كتابه وكل الوثائق التي جمعها إلى فرنسا وتقديمها إلى وزارة الحربية التي بعد فحص المسودة والوثائق طلب منه إن لا ينشر بعض الفصول وذلك رضوخا لضغوطات الحاكم العام جونار (Jonnard) الذي كان له حينها وزن لدى الحكومة المركزية بباريس، وكان له ذلك بعد استقباله من طرف العقيد توتي (Toutée) مدير ديوان لدى وزير الحربية الجنرال بكارت (Piquart) فما كان من مارتن إلا الرضوخ لأوامر قيادته وطبع الكتاب بدون بعض الفصول سنة 1908 ولم يسمح له بطبع تلك الفصول المحظورة إلا سنة 1923 وهي الفصول التي جاءت في كتابة أربعة قرون من تاريخ المغرب والصحراء مع إضافة بعض الفصول التي لم تأتي في فهرس كتاب الواحات الصحراوية (Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine*, 1923, p. 9).

ومن المؤكد أنه بعد صدور كتاب الواحات الصحراوية أعتبر جزء أساسي من الرؤى الأجنبية وخاصة الفرنسية التي قدمت الكثير فيما يتعلق بالتاريخ لمنطقة توات، وله السبق دون غيره في جمع الكثير من المخطوطات والسجلات التي وجدت في خزائن أهالي المنطقة، أو ضمته سجلات عملية الجرد التي قامت بها سلطات الاحتلال الفرنسي فقد كشف لنا كتاب الواحات الصحراوية عن روايات تاريخية محيطه بالمنطقة ونسيجها الاجتماعي والاقتصادي.

وقد سلط الضوء على الدور الحيوي للهياكل المجتمعية بما في ذلك من أعراق والهياكل التسلسلية لطبقات الاجتماعية التي اعتبر ضرورية لفهم تنظيم الاجتماعي في توات وبين لنا

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات

(الوحدات الصحراوية لآ.جي. بي مارتن نموذجاً)

التفاعل بين الأنظمة العرفية والقواعد الفقهية الإسلامية التي تحكم الحياة الاجتماعية في المنطقة إلى جانب ذلك أشار في دراسته إلى الجانب اللغوي فيين دور وأهمية اللغة باعتبارها حجر أساسي لدراسة الهوية الثقافية لسكان توات. كما أن مارتن وضع لنا ارتباط اقتصاد منطقة توات بتقنيات وعادات زراعية مميزة فأتى على ذكر أنظمة الري المعروفة بالفقارة التي استخدمت لعدة قرون (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908).

ومما لا شك فيه أن مساهمات الكتابات الفرنسية منها في استكشاف منطقته توات هي تعزيز كبيراً لفهم الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة، وذلك من خلال الانغماس في الرواية التاريخية والمسح الأنثروبولوجي، بالإضافة إلى ذلك قدم الباحثون الأجانب منهجاً متنوعاً ونظرة مختلفة عززت من الاستراتيجية التحليلية لفهم الزخم الاجتماعي للمنطقة، علاوة على ذلك فإن الكتابات الأجنبية تسهل الفحص النقدي وهذا يلهم الباحثين المحليين في التشكيك أو التأكيد على صحة ما نقله الأجانب من روايات تاريخية.

ولكن هناك الكثير من النقائص ندركها من خلال قراءتنا لكتاب الوحدات الصحراوية فهناك تحيز تفسيري واضح يمكن أن يؤدي إلى تصور مشوه عن تاريخ المنطقة، نشأ هذا التحيز من خلال السياق التاريخي الذي تم فيه إنشاء وترتيب نصوص الكتاب. بالإضافة إلى ذلك اعتماده على الرواية الشفوية كمرجع أولي يمكن أن يؤدي إلى عدم الدقة في هذه الرواية مع تواريخ المنطقة كما تشير إلى ذلك دراسات أخرى مختلفة عن المنطقة.

منها أنه أشار إلى دخول اليهود منطقة توات منذ القرن الأول على أنه ذكر قبل ذلك بوجود الجيتول قبلهم، ثم بعد الجيتول واليهود قدوم الزناتة بعد الفتح الأول للمغرب سنة 681م ميلادية على يد عقبة بن نافع، وهو يعترف في كتابه بأن الجيتول يعودون إلى الأصول البربرية (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908) وكذا بالنسبة لزناتة فكيف يسلم الأمر ويدعي أن اليهود سكنوا توات قبل البربر، وبالإضافة إلى ذلك أن أصل التسمية توات من جذر اللغوي (وا) الذي يعود إلى الجذور اللغوية البربرية التي تعني الواحة أو الأرض، حتى أنه يبرهن على ذلك بأن هنالك واحة بأعالي قورارة تسمى (تواتن عبو - Touat-n-Ebbou) تعني بلاد الماء أي واحة الماء

(Martin, Les oasis Sahariennes, 1908) زيادة على ذلك فمعظم أسماء قصور توات هي أسماء ذات أصول بربرية فكيف تسنى لمارتن أن يجانب الصواب، بل أكثر من ذلك أنه أرخ لفترة اليهود وهو يعلم يقينا أن لا حجج له على ذلك الوجود، فلذلك تمنى من خلال كتبه أن يوجد في المستقبل وثائق تثبت ذلك الحضور (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908). علاوة على ذلك تأثر مارتن وفضل موضوعات معينة على حساب موضوعات أخرى على سبيل المثال: تركيزه في المقام الأول على الأنشطة الاقتصادية وتجاهل النشاط الثقافي ونخص منه التنظيم التعليمي، مثل: المستويات التعليمية، المواد الدراسية، المناهج، طرق التدريس... الخ فإشارته إلى ذلك كانت جد بسيطة. رغم أنه أتى على ذكر الكثير من أحوال منطقة توات ولكن كلها كانت تتركز حول ما يفيد المحتل من معرفة تمكنه من التحكم وتسيير المنطقة، كما أنه لم يشير إلى الحياة اليومية للإنسان التواتي، كيف هي الحياة الأسرية، كيف هي أحوال سكنه ومعيشته، ولعل ذلك يعود إلى شخصيته وغلبة الطبع العسكري عليه، فهو قبل كل شيء يرى الأمور من منظور المحتل والعسكري الذي يبحث عن المعلومة التي تساعد في إيجاد وسائل تعطيه القدرة على التحكم في الأهالي.

وكذلك ما يؤخذ عليه اعتماده في كثير من الأحيان على الرواية الشفوية التي بنى عليها الكثير من تاريخ منطقة توات، وكذلك الاعتماد على بعض التنبؤات الخرافية للتأكيد على ما آلت إليه أحوال توات حينها، مثل: ما جاء في آخر كتابه التي تذكر أن البلاد ستمر بعدة فترات زمنية وسيأتي زمان يأتي بسلطان من الشرق ويشير مارتن أن هذا السلطان هو فرنسا، ويبرهن على ذلك أن القوات الفرنسية دخلت من الجهة الشرقية لتوات محتلة عين صالح التي تقع شرق المنطقة، وبنى كل ذلك على إحدى النبوءات الخرافية التي ذكر أنه سمعها من احد سكان المنطقة (Martin, Les oasis Sahariennes, 1908) وإذا تتبعنا هذه النبوءة فأين توات من ذلك وقد أصبحت تنعم في حرية.

وبالإضافة إلى ذلك فهو لم يشر في كتابه على ما وجده في المخطوطات من علوم غير تاريخ المنطقة، فلم يبرز لنا محتوياتها من علوم ومعارف زخرت بها تلك الكتب كعلم الفلك، الرياضيات، الطب، الحرف... وغيرها من العلوم التي ملأت الكثير من صفحات تلك المخطوطات، وتجدر بنا الإشارة أيضا أننا نجد مارتن في آخر كتابه وكذا في بداية كتابه أربعة قرون

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات

(الواحاح الصحراوية ل آ.جي. بي مارتن نموذجاً)

من تاريخ المغرب والصحراء يذكر أن معظم المصادر الأوروبية التي اعتمد عليها ورجع إليها، بينما لم يذكر المخطوطات التي رجع إليها حين تأليفه هذا كتاب الواحات الصحراوية ولا حتى قام بدراستها حتى يتمكن من معرفه مجمل المخطوطات التي رجع إليها في كتابه وكل ما هنالك أنه جاء على ذكر بعضها في المتن وهذا يخالف العمل الأكاديمي وكذا الأمانة العلمية.

الخاتمة: في آخر هذه الدراسة يمكن القول أن كتاب ألفريد جورج بول مارتن، الواحات الصحراوية (قورارة - توات - تيديكلت)، مساهمة أساسية في دراسة المجتمعات في منطقة توات. ومن خلال دمج وجهات النظر التاريخية والاجتماعية والثقافية، تمكن مارتن من تسليط الضوء على الديناميكيات المحلية وتعقيدها في مواجهة التأثيرات الخارجية. ويستمر عمله في إلهام الأبحاث المعاصرة، التي تستكشف مرونة المجتمعات الصحراوية وقدرتها على التكيف في عالم يتغير باستمرار. وبالتالي فإن مساهمات مارتن ليست ذات صلة بفهم تاريخ المنطقة فحسب، بل إنها تفتح أيضاً سبلاً للتفكير في التحديات الحالية التي تواجهها هذه المجتمعات.

وعلى هذا الأساس يعد اكتساب فهم متعمق لمنطقة توات من خلال مجموعة متنوعة من وجهات النظر أمراً ضرورياً لفهم جيد لمجتمعاتها. كما أنه يكشف التفاعل بين الروايات المحلية ووجهات النظر الخارجية عن التعقيدات المتشابكة المنسوجة في النسيج التاريخي والثقافي للمنطقة. وعلى الرغم من أن الكتابات الأجنبية توفر رؤى مهمة، إلا أنها غالباً ما تحمل تحيزات متأثرة بسياق المؤلفين وخلفياتهم الفكرية، والتي يمكن أن تشوه فهم التسلسل الهرمي للمجتمع والممارسات الاقتصادية والتقاليد الثقافية داخل مجتمعات توات.

إن دمج ما جاء في هذه الكتابات مع وجهات النظر المحلية يثري هذه المواضيع، ويسهل فهمًا أكثر دقة لهياكل المجتمع والعلاقات بين الأشخاص. إن التعاون مع الباحثين المحليين يفتح الباب أمام التشكيك في المعتقدات الشائعة الموجودة في الحسابات الأجنبية، مما يعزز التبادل التعاوني للأفكار التي تعود بالنفع على جميع الأطراف المعنية. ولا تعمل هذه الشراكة على إضفاء الطابع التنوعي على إنتاج المعرفة فحسب، بل تؤكد أيضاً على الحقائق المعيشية لسكان توات.

بالإضافة إلى ذلك، فإن تقييم الكتابات الأجنبية إلى جانب التاريخ المحلي يسلط الضوء على الفجوات في الأبحاث الحالية، ويكشف عن طرق جديدة للاستكشاف. حيث لا يزال هناك مخزون كبير من المواضيع التي لم يتم استكشافها إلا قليلاً، فيما يتعلق بالعلاقات بين المجتمعات وأساليب الحكم والشبكات الاقتصادية. ومن خلال الاعتراف بقيمة هذه المصادر المتنوعة، يمكن للباحثين المساهمة في سرد تاريخي أكثر شمولاً يحترم العادات المحلية والعلاقات الإقليمية الأوسع.

ويمكن التأكيد بما فيه الكفاية على أهمية دمج وجهات النظر المتعددة؛ وهذا يعزز مناخاً يفضي إلى الفهم الكامل مع تقليل من التفسيرات التبسيطية الناشئة عن منظور واحد. إن احتضان هذا التنوع يثري في نهاية المطاف تقديرنا لمنطقة توات كفضاء ديناميكي تشكله طبقات من التفاعلات بين مجتمعاتها والتأثيرات الخارجية عبر التاريخ.

. قائمة المصادر والمراجع:

مراجع عربية:

1. بن خلدون، عبد الرحمن، (2000)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: خليل شحاتة، بيروت، دار الفكر.
2. رموم، محفوظ، (2016) توات الجغرافيا والمصطلح من خلال المونوغرافيا المحلية والأجنبية، مجلة الحوار الفكري، جامعة أدرار.
3. سعد الله، أبو القاسم، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
4. سعد الله، أبو القاسم، (1973) منهج الفرنسيون في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الاصاله، السنة الثالثة، العدد 14-15، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي.
5. العربي، إسماعيل، (1983)، الصحراء الكبرى وشواطئها، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
6. عميراي، حميدة، (2005)، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، عين مليلة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

الكتابات الفرنسية وأهميتها في التاريخ لمنطقة توات
(الوحدات الصحراوية لآ.جي. بي مارتن نموذجاً)

7. العياشي، أبو سالم، (2006) الرحلة العياشية (ماء الموائد)، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط01، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع.
8. . القيسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (1968)، أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040- 1042هـ/ 1630- 1633م، تح: محمد الفاسي، فاس، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي.
9. نوشي، أندري وآخرون، (1984)، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رابع ومنصف عاشور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
10. الوزان، حسن (1983)، وصف افريقيا، ترجمه محمد حجي محمد الاخضر طبعه الثانية، بيروت، دار الغرب دار الاسلامي.

11.مراجع أجنبية:

12. -Augustin, Bernard, et N. Lacroix, (1906), la Pénétration Saharienne (1830-1906), Alger, Imprimerie Algérienne.,
13. -C.E. Curinier, (1931), Dictionnaire national des contemporains, Alger.
14. -Colonel, FULGRAND, (1886), Sahara, ATLAS COLONIAL, PARIS, CHARLES BAYLE, ÉDITEUR.
15. -Commandant, VAISSIÈRE, (1902), TOUAT, Revue de géographie .tome L ,janvier-juin, paris, librairie CH.DELAGRAVE .
16. -Colonieu, Victor, (1892), Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T13, Paris.
17. -Daumas, Eugène, (1848) , itinéraire d'un caravane du sahara au payes des négres, , Paris ,imprimerie et librairie centrale de Napo éon Chaix et Cie.
18. -Daumas, Eugène , (1845), Le Sahara algérien : études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie, Paris ; Langlois et Leclercq.

19. -De Colombe, Louis, (1858), Explorations des Ksour et du Sahara de la Province d'Oran, Alger, Imprimerie Du Gouvernement.
20. -De la Ronccière, Charles, (1919), Relation de voyage datée du Touat en 1447 -Bulletin de la société de géographie 1918 , Paris ,imprimerie Nationale.
21. -Dictionnaire, des communes de l'Algérie , (1903) Dictionnaire des OASIS SAHARIENNES TOUAT - GOURARA – TIDIKELT , ALGER PIERRE FONTANA, IMPRIMEUR-ÉDITEUR.
22. -Jonard, A.M, (1938), Notice Historique sur la Vie et les Voyages de René Caillé, Bulletin de la Société de géographie, 2 série, T10, Paris.
23. -Martine, A.G.P, (1908) Les oasis Sahariennes Gourara-Touat- Tidikelt, Alger, Edition de l'imprimerie algérienne.
24. -MARTIN, AGP, (1893), L'action française dans le Sahara ; REVUE AFRICAINE VOLUME 37 ANNÉE 1893. JOURDAN, . Alger, LIBRAIRE-ÉDITEUR .
25. -Martin, A.G.P, (1923), Quatre siècles d'histoire marocaine : au Sahara de 1504 à 1902, au Maroc de 1894 à 1912, Paris, d'après archives et documentations indigènes Librairie Félix Alcan.
26. -Messaoudi, Alain, (2010), Renseigner, enseigner. Les interprètes militaires et la constitution d'un premier corpus savant « algérien » (1830-1870), Revue d'histoire du XIXe siècle.
27. -MEYNIER, O, (Directeur des Territoires du Sud), (1930), LA PACIFICATION DU SAHARA ET LA Pénétration Saharienne (1852-1930) CAHIERS DU CENTENAIRE DE L'ALGÉRIE, Alger, PUBLICATIONS DU COMITÉ NATIONAL MÉTROPOLITAIN DU CENTENAIRE DE L'ALGÉRIE, janvier.
28. -Rolland, Georges, (1891), Le trafic du transsaharien . Paris , Extrait de l'économiste français des 3 et 10 JANVIER 1891 Challamel éditeur .
29. -Saffroy Bernard, (1994), chronique du Touat, Ghardaia, Centre de Documentation Saharienne.

30. -Soleillet, Paul, (1875), Voyage de Paul Soleillet d'alger a l'oasis d'In Salah, Rapport de Chambre commerce d'Alger, ALGER, TYPOGRAPHIE ET LITHOGRAPHIE. A JOURDAN.
31. Suter, Karl, (1953), Étude sur la population et l'habitat d'une région du Sahara algérien : Le Touat. Revue de géographie alpine, tome 41, n°3.
32. Malte, Brun, (1866), rèsumé Historique et Gèographique de l'exploration de Gerhard Rohlfs Au touat et a in-çalah d'après le Journal de ce voyageur, paris, Challamel Ainé Librairé éditeur.
33. Voguet, Elise, (2018), Le peuplement du Touat au XIVE XVIe siècle : mémoire locale de lignages au sein d'un espace Socioculturel connecté Réflexions sur l'utilisation d'une production manuscrite régionale tardive, Paris, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée .
34. Voguet, Elise, (2018), Travailler sur les manuscrits du Touat : Expérience de recherche dans les bibliothèques privées (khizānāt) du Sahara algérien », dans Claude Laroque (dir.), La peinture et l'écrit au Moyen-Orient, supports et tracés, Paris, site de l'HiCSA, mis en ligne en décembre,
35. Vuillot, P, (1895), L'exploration du Sahara étude historique et géographique, paris,, Augustin Challamel.
36. - Watin, Louis , (1905), Origines des Populations du Touat D'APRÈS LES TRADITIONS CONSERVÉES DANS LE PAYS Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord. . Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord